الفصل الرابع

فى
السِّحْر وما حَوْله
مَاله وما عليْه

- حول الأبعاد المحددة لهذه الدراسة ..
- لمحة مبدئية تاريخية عن السحر .
- السحر ومدلوله وماذا تعنى به ؟
- ما حول السحر من ظاهرات شبيهة به ..
- مدى علاقة السحر بالدين .
- موقف الاسلام من السحر .

obeikandl.com

« فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى »
(طه : ٦٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

السحر وما حوله ماله وما عليه

تمهيـــد :

حول الأبعاد المحددة لهذه الدراسة(*)

حينما نستمع إلى تعبير سحر تتوارد المعانى لدينا وتتداخل بين الغامض والخفى ، وبين الجذاب والمستحوذ على الألباب ، وعلى ضوء هذا التوارد وهذا التداخل يتسع الإطار ويفيض ليشمل الكلمة ؛ والبيان والشكل ، والجوهر ، والطبيعة ، والإنسان : كلمة ساحرة ، بيان ساحر » ، إن من البيان لسحراً » ، مظهر ساحر ، جوهر ساحر ، إنسان ساحر ، طبيعة ساحرة . . . وعلى هذا المنوال نقيس فى منح النعوت ، وتنويع الصفات الجذابة فى مظهرها ، والخفية فى مضمرها بالنسبة للفهم الفورى والانطباع السريع ، غير أننا إذا تجاوزنا هذا الإطار الساحر للسحر لنخضعه كظاهرة للبحث العلمى ، ومن ثم للشرح والتحليل ، والتفسير والتخريج ، نجد أن السحر قد اهتم به أكثر من ميدان علمى ، سواء بالنسبة للعلوم الطبيعية والبحتة ، أو بالنسبة للعلوم الإنسانية — على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن حين النظرة العفوية الفورية — فلقد تصدت هذه العلوم له فى محاولة للتنقية والعزل ، ورفع جوانب الالتباس التى عاصرت معرفة الإنسان وتطورها فى مراحلها القديمة ، والوسيطة ، وحتى فى مشارف العصر الحديث . وبعض مناحيه .

(*) نشرت هذه الدراسة الخاصة **بالسحر** فى المجلد الثانى من الباحث (١٩٧٢) ص ١٥٥ كما نشر العرض الخاص **بانسان القرآن وأبعاده الاجتماعية** فى العدد ١٧ من **البحث العلمى** يناير — مايو سنة ١٩٧١ ص ٨١ ونظرا لوجود بعض الاخطاء ، خصوصا تحريف اسم المؤلف نفسه فذكر باسم « رشدى أباظة » بدلا من رشدى فكار ، قمنا بآعادة نشرهما فى هذه الدراسة على حدة مع خالص تقديرنا وشكرنا للسيد مدير مطبعة محمد الخامس الثقافية والجامعية على مجهوداته الطيبة فى اعادة النشر .

فى حقل العلوم الطبيعية والبحتة ، كان الاهتمام بدراسة ظاهرة السحر فى محاولة للتنقية والعزل والتمييز بين السحر ، وعلوم الطبيعة والكيمياء ، وبينه وما حوله ، كالتنجيم وعلوم الفلك والطب . . . وفى حقل العلوم الإنسانية كان الاهتمام بدراسة ظاهرة السحر خصوصاً على ضوء العلاقة بينها وبين الدين كنقطة ارتكاز تصدت لها الدراسات الانتربولوجية وما حولها ، والسيكولوجيا بدورها اهتمت بهذه الظاهرة وآثارها النفسية ، كما اهتم بها التاريخ بدراسة تطورها ، وانبرت لها السوسيولوجيا بالدراسة وذلك فى محاولة شارحة وتقريرية لأبعادها الشمولية فى الواقع الاجتماعى ، وتحديد السببية والعوامل المهيئة ، وتفهمها كظاهرة تؤثر من خلال رواسب البيئة الأساسية وتتأثر بها ، وقد تمت نتيجة لهذا الاهتمام المتعدد الجوانب وبفضله ، دراسات علمية عريضة غزيرة واسعة تناولت شتى ضروب السحر وما حوله (١) وإن كانت المكتبة العربية الحديثة ، رغم أهمية هذه الظاهرة وماكتب عنها فى الأوساط العلمية الأجنبية . وما زالت فقيرة ، أو محدودة الإمكانيات على الأقل بالنسبة لما تملكه من دراسات أصيلة بلغتها ، فهى تعيش فى أغلب الأحيان على تداول ماكتب من أقاصيص السحر وعوائده ، وأوصافه وعجائبه (٢) .

---

(١) فنظرة سريعة على هوامش هذا البحث فى الصفحات التالية ، تعطى لنا فكرة عن مدى سعة الانتاج الذى ظهر حول السحر ، وعن مدى غزارته ، وان كنا مع هذا لم نذكر الا بعض الدراسات التى رجعنا اليها فى صياغة هذا العرض المركز المحدود ، والمحدد الجوانب اذ أنه لو توخينا حصر المراجع الخاصة بالسحر لكان مجرد سرد عناوينها يحتاج الى العديد من الصفحات ...

(٢) نجدها فى كتب على حدة من الكتب ذات « الاوراق الصفراء » أو تغطى فصولا بما اورده الكتاب والرواة والرحالة والمؤرخون ، ورؤيتهم للسحر وضروبه ووصفاته كمثال نطالع أيضا حتى عند ابن خلدون فى مقدمته وعند غيره فى الفترات السابقة أو التالية له . وما احوجنا حاليا لدراسات علمية حديثة حول هذه الظاهرة التى تعشعش فى جسد اغلب المجتمعات العربية وتنخر فيه ، وتعيقه ، فباستثناء بحوث قليلة نادرة أو مقالات فى =

ولعل هذا من الأسباب التى دفعتنا أن نقدم هذه الدراسة المتواضعة عن السحر وما حوله ، ما له وما عليه ، لا لسد هذا القصور . وإنما لإعطاء عرض تمهيدى مركز قديدفع إلى دراسات أخرى أوسع وأكمل فى المستقبل.

دراستنا هذه تنير الطريق إذن ، لا أكثر ولا أقل ، خصوصاً وقد دعمناها ، من خلال هوامشها بمراجع ومصادر مختارة لمن أراد التفصيل والبحث بتوسع حول هذا الموضوع فى المستقبل، وسنبدأها بلمحة توضح المعالم الأولية ، بتحديد إطار الظاهرة تاريخياً دون الدخول فى تفصيلات تتجاوز طبيعة التركيز لهذه الدراسة ، ثم نتعرض بعد ذلك لظاهرة السحر على مستوى مدلولها ، وهل يمكننا أن نعين مفهوماً يعرف من خلاله السحر وماذا نعنى به ؟ وهذا يدفعنا إلى مواجهة الظاهرة بما حولها وما يسير فى فلكها من ظاهرات شبيهة كالشعوذة ، والشيطنة ، والتنويم . . . الخ لنحدد الأبعاد ، ولنصل بموكب الشرح والتحليل ، والتفسير والتخريج ، إلى نقطة هامة طالما شغلت بال الباحثين فى هذا الموضوع ، خصوصاً من الانتربولوجيين ، ونعنى بها علاقة السحر بالدين ، غير أننا سنكتفى بطرحها فى شكل مركز مجمل تمشياً مع إطار هذا البحث . دون الخوض فى خصائص المجتمعات البدائية والحقل الانتربولوجى ، مكتفين بالإشارة إلى الاتجاهات الرئيسية للتعرف عليها والتعريف بها بإيجاز ، مع توضيح موقف الإسلام كدين من السحر ، فهى قضية تعنينا أساساً ، وسنهى عرضنا المركز هذا ، بخلاصة نتصدى فيها لقدرة السحر إن كانت له قدرة ، ونكيف فاعليته ، إن كانت له فاعلية على مستوى الساحر والمسحور .

***

=

صفحات تعد على الاصابع كمجرد مثال مقال الدكتور سيد بدوى عن السحر وعلاقته بالدين المنشور فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ج ٤ (راجع ايضا ، بخصوص هذه المقالة هامش (١) صفحة ١٠٢ وما تلاه من دراستنا هذه) ، لا نجد مؤلفات أو دراسات اصلية تستحق الاشارة فى هذا المضمار .

المبحث الأول

لمحة مبدئية تاريخية عن السحر

من المسلم به ، أن الغوامض والأسرار والغيبيات ، والخفايا ، كانت تسيطر بصفة عامة على معرفةالإنسان فىفتراته الأولى ، وامتصت المجتمعات القديمة من بين ما امتصت سيطرة هذه المعطيات التى كانت فى بدايتها على مستوى الطوطمية ، والوثنية ، والتجسد، والتقمص الاحيائى ، إلخ ولقد نشأ السحر فى مظاهره الأولى عبر هذا الإطار ، إطار الخفى والغامض ، والسرى والغيبى . وبالتالى لم تك المعرفة على مستوى السببية والتعقل الطبيعى للأمور ، وحتى السحر بدوره مر من مستوى الغموض الكامل إلى الخفى نسبياً ، بمعنى من مستوى سحر لا تعرف عناصره ، ويعطى صاحبه قدرة خارقة فى مستوى القدرة الإلهية حسب اعتقادهم آنذاك إلى مستوى السحر الخفى الذى له تطبيق ، وتعرف عناصره نسبياً ، وبالتالى يلقن ويعلم ويتوارث بين السحرة عن طريق التدريب عليه والمزاولة ، بناء على تأهيل يزكى بقدرة نفسية وطبيعية مميزة ، وعليه فمنذ أقدم عصور الإنسان ، ومن خلال أقدم حضاراته الكبرى كمثال الحضارة الفرعونية ، والسحر يجد أرضه الخصبة ، ولقد حاول بعض المؤرخين أن يعطى تواريخ محددة ما أمكن ، فمنهم من ذهب به إلى ما قبل طوفان نوح ، ومنهم من ارتفع به إلى تسعة آلاف عام قبل الميلاد ، إلا أن التحديد خصوصاً بين سحب الأساطير وضباب الرواة ، ينظر إليه بتحفظ وحيطة إن لم يدعم بالوثائق والوقائع الأثرية الملموسة .

فالفراعنة — مهما كان التحديد وتموجه — عرفوا السحر قطعاً على مستوى بين محدد ، إذ كانت له قواعد وأنسقة سحرية بمعنى يشمل على

طقوس وشعائر معينة، أعطتنا دراسة الآثار الفرعونية صورة واضحة عنها كمثال كتاب الموتى ، وأسرار الأهرام،وأسطورة « أوزيريس — إيزيس». OSIRIS — ISIS ... الخ ، ولقد لعب السحر دوراً هاماً لدى الفراعنة بما فى ذلك الناحية الطبية ، حيث الجسم يقسم إلى جزئيات كل جزئية تخضع لقدرة سحرية معينة ، وكان السحر نوعين : سحر رسمى LICITE وهو سحر الكهنة . ووصلت قدرته وفاعليته — على حد اعتقادهم آنذاك — الى الأحياء والإماتة ، والسحر السرى ILLICITE وهو يلجأ إلى الطلاسم والسموم ، وقد حورب فى عهد « رمسيس الثالث» وكانت توقع أقسى العقوبات على السحرة السريين الذين كانوا يزاولون نشاطهم السحرى غير المشروع (١) .

والبابليون والآشوريون والكلدانيون ، عرفوا السحر ،عرفه البابليون خصوصاً خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد مع حمورابى ، وعرفه الكلدانيون القدماء . والآشوريون ازدهر بصفة خاصة عندهم خلال القرن الثامن والسابع قبل الميلاد ، ويذكر بالنسبة للبابليين أن الآلهة عندهم كان لهم اسمان ، اسم ظاهر ، واسم خفى باطنى له قدرة طلسمية سحرية، ولقد تفشت فى أرض بابيلون ظاهرة « الأرواح الجائلة الباطنية» وكانت هناك طقوس خاصة لحصرها والتغلب عليها ، كما عرفوا بعض الظاهرات التى تسير فى فلك السحر كالتنجيم والشيطنة وقد كان للشياطين تصانيف منهم من يعمل بالليل فقط ، ومنهم من كانوا يسجدون له ، واشتهر نوع الطاغوت من الشياطين الصارفة عن الخير ، ويلاحظ بصفة عامة فى مجمعات البابليين والآشوريين والكلدانيين أن باطنية السحر هى التى كانت

---

(١) لمزيد من التفصيل عن السحر عند الفراعنة راجع :
BONNE (Cambell). **Studies in Magical amulets, Chiefly greeco Egyptian.** Uni. Michi. Press, 1950, Budge. E. — A. Wallis **Egyptian Magic**, London. 1901, et LEXA (François, **La Magie dans l'Egypte antique**, Paris Genthnér, 1925, 3 vol. etc.

سائدة، وعند اليهود فى المجتمعات الهامشية الأخرى المعاصرة لهذه المجتمعات القديمة وصل السحر إلى قمته ، عرفته مملكة سليمان ، كما تفشى فى عهد موسى (وإن كنا نهمشه للمجتمع الفرعونى ونلحقه به) ومهما كانت المعطيات للوثائق الأثرية ، أو الكتب السماوية ، فمن المسلم به على أى حال أن الظاهرة وجـــدت أساساً وتفشت ، بل وسيطرت فى بعض هذه المجتمعات (١) .

والإغريق والرومان وعبر العصر الوسيط الأوروبى كان للسحر عندهم مكانة لايستهان بها ودور برزلنا على مستوى « مديس وسيرس MEDEES ET CIRCE فى « الأوديسة » ، إلا أنه كثيراً ما كان يحدث خلط والتباس بين السحر وما حوله ، خصوصاً العرافة ، بين الساحر والعراف ، ورغم التنقية الفكرية التى قامت بها الفلسفة الإغريقية لمواجهة التغميض ، ومحاولة التفهم للقوة الغيرمرئية المؤثرة فى الإنسان وتحقيق رغباته ، وتحكيم المنطق ، إلا أن الأساطير والخفايا ومسيرة التغميض عاشوا جنباً إلى جنب مع الصفـــاء الفكرى السقراطى والأفلاطونى ، والأرسطى ، والرؤية الأصيلة آنذاك .

وسيطر السحر عند الرومان فى بعض عصور روما ، خصوصاً على عهد الإمبراطور « جوليوس سيزار أوجستوس AUGUSTUS » واتجه السحار إلى روما من كل صوب . أما « نيرون NERON » فقد حارب السحر رغم أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى السحرة خفية لمساعدته من آن لآخر . كذلك عرفت بيزنطة أشكالا متعددة من السحر ، أما « أساطير فيستا VESTA » وخفاياها

---

(١) لمزيد من الاحاطة حول هذا الموضوع ، راجع على سـبيل المثـال لا الحصر :

CONTENAU (G.) **La Magie chez les Assyriens et les Babyloniens,** Paris, Payot, 1947, SEYED IDRIES SHAH **Oriental Magie,** et trad Franc, par Mazi **La Magie Orientale,** Paris.
Payot, 1957 et CHOCHOD (Louis), **Histoire de la Magie et de ses dogmes,** Paris, Payot, 1949 etc.

السحرية . فقد تفشت فى روما كما تفشت من قبل لدى الإغريق وكذا أساطير وخفايا « اليوزيس ELEUSIS ».

واستمر موكب السحر عبر العصور الوسيطة فى أوروبا خصوصاً الظواهر الخاصة « بأسرار الحياة وطاقتها ELIXIR DE LA VIE » وسحر الآبار وتسميمها. وجاءت النهضة العلمية فى أوروبا فحدت نسبياً وتدريجياً من هذه الظاهرات، خصوصاً مع نضوج عملية العزل ومحاولة التميز على مستوى علمى بين التنجيم وبين علم الفلك ، وبين الطب ، وبين علوم الطبيعة ، والكيمياء وبين السحر . . .

ولم تبق إلا بعض المظاهر العالقة بعملية تحضير الأرواح خصوصاً فى فقد السحر صدارته فى أغلب المجتمعات الأوروبية، وضاعت عليه أهميته بفضل تقدم العلم وتحرر المعرفة من الرواسب (١) .

وفى الهند والصين والشرق الأقصى عاشت ظاهرة السحر وتعايشت مع هذه المجتمعات بدورها ، وجدير بالذكر أنه فى فترة من الفترات كانت هناك علاقة قوية بين «البوذية » و « الغيبية » OCCULTISME وارتباط ذلك بنظرية الإحلال وتناسخ الأرواح ، وبالتالى كان يصعب فى هذه الفترة

---

(١) ولمن اراد التوسع يراجع على سبيل المثال فى هذا الموضوع :
BONNE (Cambell), **Studies in Magical amulets Chiefly Graeco-Egyptien,** Leni, Michigan press, 1950, EITREM (S.), **La Magie comme motif, Littéraire chez les Grecs et les Romains,** Extraits de symbole OSLOENSES. 21 p. 39 — 83, MASSONNEAU (Elianc), **Le Crime de Magie et le droit Romain,** Paris, 1933 (Thèse), BENIGNI (Umbarto) **Una Formula Magica Bixantina,** Siena, 1897, DELLACAPANNA (Gian Piero) **Magia, astrologia inquisizione e medicina hediocvale,** Piza, 1969. BILA (Constantin), **La croyance à la Magie au XVIII Siècle en France dans les contes,** Paris, 1925, FILLIOZAT (Jean). **Magie et nédiecine,** Paris, P.U.F. 1943, MARIEL (Pierre), **L'Europe païenne du XX siècle, Magie, noire en Angletaire, Tzigannes gitans et romanicheles, l'Allemagne païnne,** Paris, la palatine, 1964, et STORMS (G.), **Angle-Saxon-Magic,** The Hague, N. Jhoff 1948.

عزل الدين عن السحر عندهم ، على مستوى التطبيق أو المعتقدات والشعائر ولدى البراهمة فى الثالوثية الإلهية الهندوسية كان من أدوار أحدهم « CIVA » وصفاته السحر يهدم به ليبنى ، ولقد تجاوزت أسماؤه الآلاف ، ويلاحظ فى الصين القديمة تبلور السحر على مستوى الصراع بين الطاقة الكوسمية ، وغيرها من الطاقات ، ولقد كان للرقص والغناء دور « هام » فى وسائل السحر . كما تفشت ظاهرة العرافين والمشعوذين ، حتى أنه فى المرحلة السابقة لمفكر الصين الكبير « كنفوشيوس » كان للمشعوذين مكان رسمى فى الدولة ، ولقد لعب « الرقم CHIFFRE » دوراً أيضاً فى السحر الصينى : وعمت كذلك ظاهرة الأرواح الخبيثة وكانوا يلجئون فى إبعادها إلى وضع أشجار أو زراعة شيء معين فى المكان الموجودة فيه ، وما أكثر منحنيات السحر وضروبه فى هذه المجتمعات الشرقية (١) ، وحتى تكمل جولتنا التاريخية التمهيدية هذه ، نشير إلى مجتمعنا العربى ، فهو بدوره ، قد عرف هذه الظاهرة .

المجتمع العربى ، منذ القدم وعصور الجاهلية ، وهو يتعايش مع هذه الظاهرة وما حولها كالتنجيم والعرافة . . . وورث من المجتمعات المجاورة ، كما ورثوا هم من غيرهم ، ضروباً كثيرة من ضروب السحر ووسائله وتعرض الكثير من الرحالة والمؤرخين ، والكتاب ، لهذه الظاهرة بالوصف والتصنيف والتبويب ، حتى ابن خلدون نفسه فى مقدمته .

وما زالت أقطار كثيرة من العالم العربى تعيش هذه الظاهرة ، خصوصاً فى مناطقها المتخلفة الفقيرة ، ونجد من يمارس السحر ويستمع إليه ، ويلجأ

---

(١) لمزيد من التفصيل راجع :

CHOCHOD (Louis), **Occultisme et Magie en extrême-Orient, Inde. Indochine, Chine,** Paris, Payot, 1945 et SHAH (Seyed Idries) **Oriental Magic**, et trad. Franç. par Mazé, **La Magie Orientale**, Paris, Payot, 1957.

إلى وسائله لمواجهة مشاكل الحياة اليومية (١) أما الإسلام كدين فقد كان له موقف واضح سوف نعود إلى التعريف به فى نهاية هذه الدراسة (٢) والآن ، وبعد هذه اللمحة المبدئية التاريخية عن السحر ، سنحاول أن نتصدى لهذه الظاهرة على مستوى المدلول والمنطوق .

---

(١) لمزيد من المراجعة حول السحر فى مناطق العالم العربى كمثال نذكر :

DOUTTE (Ednond), **Magie et religion dans l'Afrique du Nord,** Alger, 1909, LEFEBURE (Eugène), **Le miroir d'encre dans la magie arabe,** Alger, **Rev. Africaine,** 1905 (257), P.P. 205-227. et MAZEL (Jean), **Enigmes du Maroc,** Paris, Robert Laffort. **Les enigmes de l'univers,** 1971.

(٢) انظر الصفحات التالية من هذه الدراسة المبحث الخاص بالاسلام وموقفه من السحر .

obeikandl.com

المبحث الثانى

السحر ومدلوله وماذا نعنى به ؟

فى البداية ، هل يمكننا إعطاء مدلول للسحر منه ننطلق فى العرض والتحليل.؟ كتعريف اصطلح عليه قاموسياً فى تحديد مدلول السحر « هو فن يزعم الإتيان بخوارق لقوانين الطبيعة المتعارف عليها ، وذلك بفضل ألغاز ووصف ووسائل كثيراً ما تكون غريبة » ، وحينما نعمق النظر فى هذا التعريف نجد أنه يشمل ضمنياً رؤية السحر على مستوى « عالم الطبيعة » وهو « عالم مادى MONDE MATERIEL » و « عالم ما فوق الطبيعة » وهو « عالم الأرواح MONDE DES ESPRITS » فالسحر يتصدى لعالم ما فوق الطبيعة عالم الخوارق والألغاز والأسرار ، والخفايا ، والغيبيات ، بصفة عامة . غير أن هذا التعريف الاصطلاحى يمكن القول بقصوره من خلال رؤية أكثر عمقاً ، إذ أنه لم يحدد لنا متى ينتهى عالم الطبيعة ويبدأ عالم ما فوق الطبيعة والخوارق ، فما يمكن اعتبار الإتيان به خارقاً للطبيعة وممثلا لما فوقها فى عصر قد يصبح ، بل أصبح بالفعل طبيعياً فى عصور تالية بفضل تقدم العلم والمعرفة . وعليه لم يبق لنا ، إلا أن نتجاوز هذا التعريف الاصطلاحى التقريبى إلى تحديد المدلول والمنطوق على مستوى التعميق والتخصيص من خلال من تصدوا لهذه الظاهرة واختصوا فى دراستها . دون دخول فى تفصيلات قد تعم إطار هذا البحث المحدود والمحدد فى أبعاده ، يمكننا أن نركز أهم الاجتهادات الواردة حول هذا الموضوع فى اتجاهين رئيسيين : اتجاه نظر إلى السحر نظرة تقنينية رافضة أساساً ، واتجاه نظر إليه نظرة تقريرية تعتمد على الملاحظة ، واستقراء الأبعاد ، أولا وقبل كل شىء دون أن ترتفع به إلى مراحل الإعجاز

والخوارق ، أما الاتجاه الأول ، فلا يرى فى السحر إلا مجموعة من الوسائل والوصف يستعملها من يلجأون منذ القدم إلى حيل الشيطنة وحيل أخرى كضرب الودع حينما تعجز الوسائل العادية أن تصل بهم إلى هدفهم ، والشيطنة ، توهم على حد قولهم يملى على المسحور ، بأن هناك وحدات زكية ماكرة (خدم ووكلاء ، وشياطين) يسخرها الساحر ، وهى موجودة خارج نطاقه الطبيعى وتعمل لحسابه(١) ؛ غير أن تحديد المدلول لدى هذا الاتجاه التقنى يمكن التحفظ عليه ، أيضاً ، كما تحفظ من قبل على المدلول الاصطلاحى الذى أعطى للسحر ، وذلك أنه أشكل لدى هذا الاتجاه والقائلين به ، والتبس عليهم بين السحر وما حوله والشيطنة بصفة خاصة ، فخلطوا بينهم كما سنرى بالنسبة لتحديد المداليل لما حول السحر فى المبحث التالى من هذه الدراسة .

وكذا تقسيم السحر إلى « سحر أسود MAGIE NOIRE, GOETIE » على أنه الأساسى والأصيل من ضروب السحر يأتى بأفعال غير طبيعية بفضل الوسطاء من الأرواح الجائلة الغير مرئية ، والشريرة فى أغلب الأحيان و« سحر أبيض MAGIE BLANCHE, THEORGIE » أو سحر طبيعى يأتى بأمور غريبة فى مظاهرها ولكن فى واقعها تخضع لسببية طبيعية تعتمد على مهارة الساحر ، وقدرة تدريبه وتروضه المستمر ، هو أيضاً يمكن التحفظ عليه كتقسيم سطحى يميز فقط من حيث اعتبار الهدف . فالسحر سحر واحد يستعمل فى أهداف غرضها التسلية (أبيض) أو غرضها سيىء وشرير (أسود) . أما جوهر الأفعال الغير طبيعية والطبيعية فقد بينا فى الصفحة السابقة علة التحفظ عليه ، باعتبار أنه

---

(١) ويلاحظ انه قد تحمس لهـــذا الاتجاه كثير من الذين ربطـــوا بين السحر بهذا المفهوم وبين المعطيات المستوطنة للتخلف فى المناطق الفقيرة فى المجتمعات النامية التى أرهقها الاستعمار بثقله وأعطى فرصة لتفشى الخرافات والأباطيل فيهـا . راجع على سبيل المثال (اذ ما أكثر الدراســات حول هذا الموضوع) دراسة :

JUNOD (Herri. A.) **La Jeteuse de sorts, drame de la vie des indigènes sud-Africains**, Lausanne, 1923.

مايمكن وصفه بأنه فعل غير طبيعى فى عصر قد يصبح طبيعياً فى عصور تالية له .

أما الاتجاه الثانى ، فيميل إلى تحديد ظاهرة السحر على مستوى تقريرى مع تحفظه عليها كقدرة إعجازية خارقة ، وإنما هى نوع من الترويض التدريبى والتعليمى يعتمد على ممارسة تصل بالسحر إلى درجة من القدرة (قدرة طبيعية دائماً) ونفسية مميزة ، يتكشف بفضلها على رؤية اعتيادية فى جوهرها ، ولكن لم يتعود عليها المسحور فى مظهرها ، بعد تعرية إرادته فتبدو له خارقة ، وإعجازية ، هى رؤية لم يستأنسها المسحور لا لغموضها وخفيتها وسريتها ، وغيبيتها ، أساساً ، وإنما لأنه عاجز عن المواجهة بعد تعرية إرادته عن طريق مهارة الساحر وتدربه . والساحر يتدرج فى اكتسابه الترويضى ، من مرحلة الاستيعاب إلى مرحلة السيطرة ، إلى مرحلة الاستعمال والاستئناس لهذه القدرة التى هى فى جوهرها طبيعية ومكتسبة(١) ، وحتى تتضح الرؤية لنا على ضوء هذين الاتجاهين سنحاول أن نعطى ما أمكن حدوداً مانعة جامعة بالنسبة للسحر وما يسير حوله وفى فلكه من ظواهر مثيلة أو شبيهة . كالشعوذة ، والشيطنة ، واللامنظور ، (بمعنى الخفى من معطيات بعض الظاهرات) والعرافة والتنويم ... الخ .

***

---

(١) كذلك يرى « جوزيف غراسيه GRASSET» الذى كان اختصاصيا فى الامراض العصبية والنفسية بمدينة ليون ان السحر نوع من فضول ما قبل العلم فى القدرة البشرية وايضا ، ولمزيد من التفاصيل راجع :
BOURGEAT (J. — G.), **Magie,** Paris, 1895, J.B., **Manuel de Magie Pratique,** Paris, Niclaus, 1941, et CHOCHOD (Luis), **Histoire de lá Magie et de ses dogmes,** Paris, Payot, 1949.

المبحث الثالث

ما حول السحر من ظاهرات شبيهة به

ونبدأ « بالشعوذة SORCELLERIE »(١) : وهى فى مظهرها وجوهرها لا تشكل إلا نوعاً من المزاولة المنحطة لدعاة السحر وأدعياته لدى الشعوب المتخلفة، وعادة هؤلاء ليس لهم معرفة أو تدريب ماهر وترويض ، وإنما يتمتعون بانحلال خلقى وجنسى رخيص ويمتطون السحر كوسيلة مقنعة ، لمزاولة انحرافهم واحتيالهم، فبينما السحر يرتبط بالترويض والتدريب ، والمهارة إلى حد ما ويعيش حول إطار المعرفة نجد الشعوذة وما حولها ضمنياً ، كضرب الودع مثلا ، لا يتجاوز إطارها إطار التخمين العشوائى ، متبنياً تقاليد ترتكز على الخرافات بشتى أنواعها والأساطير ، والتهريج فى أغلب الأحيان ، مستغلا لعملية البسطاء أو الباحثين بشكل أعمى لأى تعليل لمجرى حياتهم وما يعانونه . هذه التقاليد المرتكزة على الخرافات والأباطيل تتوارد من خلال تلقين وتكرار عفوى ، الانطباعات تعميمية لأحداث ممكن أن توجد لدى أى شخص ، وتغذى بتعاويذ وحيل ليس فيها ما هو جدى أو مميز . هذا بالنسبة للشعوذة وما يسير فى ركبها(٢) .

أما بالنسبة « للشيطنة SATANISME OU DIABOLISME » وما حولها كالعفاريت والأشباح والجن ؛ والمسخرين من الوكلاء والخدم لدعاة

---

(١) وهى أى SORCELLERIE مشتقة من SORS التى من معانيها معنى « مويئدة » أو TABLETTE نسبة للموائد التى كانت تكتب عليها رموز المشعوزين ، وتعاويذهم ، وأحجبتهم .

(٢) الى جانب المراجع الواردة فى الهامش السابق أيضا :
GARNDHA NANDI, **La Magie noire et ses mystères, les anulettes, les sortilège** ... et BONNE (G.), **Studies in Magical anulets chiefly greco-Egyptien.** Univ. Michigan Press. 1950.

الشيطنة ، فما هى إلا ضرب من ضروب الرؤية الخلفية لمساوىء النفس الدونية ، وانطباعاتها التحتية ، ترمز أساساً إلى الجانب الشرير عند المخلوقات ، إلا أنه قد تواجهنا هنا ، رؤية الأديان وتفسيرها . يمكننا أن نقول دون خوض وتفصيل أن الشيطنة وما حولها ، من خلال هذا التصور والتصوير الذى أوردناه تلتقى مع تصور الأديان، خصوصاً الإسلام ، وهو الذى يعنينا كمثال حيث حددت على مستوى غير الملموس أو الملموس من خلفية النفوس وسوئها ، وربما نظرة عميقة فى « القرآن الكريم » تعطى لنا مزيداً من الرؤية الأصيلة البناءة ، فى هذا الموضوع إذا ما فسرناه على مستوى الجوهر ومعانى الهدف والغاية ، وكمجرد نموذج نسوقه « **ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر . . .** »(١) والسورة الكريمة « **قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس** » (٢) وقوله « **يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون** » (٣)، فنرى تصور الجنة على مستوى وسوسة فى الصدور وسوء النفس ، ونرى الشيطانية الكافرة التى تعلم الناس السحر شيطانية النفس التى توقع ، وتورث العداوة والبغضاء ، ولا شك أن من توسوسه نفسه ، وكذا لاعب الميسر يشعر ضمنياً فى أعماقه بهذه القيادة الشيطانية التى تسوقه وتدفعه إلى خلفية نفسية دونية . وحتى الذين يلتزمون بشكلية النص ، وحرفية الرؤية ، من أن هذه قد تكون ، وحدات ماكرة شريرة غير مرئية تجوب خارج نطاقها الطبيعى ، فهم أيضاً يسلمون ضمنياً ، أنه ليس للإنسان قدرة على تسخيرها ، كما يزعم الدجالون ، ودعاة الشيطنة ، وإنما العكس هو الصحيح ، فهذه

---

(١) البقرة : ١٠٢ .
(٢) سورة الناس
(٣) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

الوحدات هى التى تغوى وتعلم وتسخر النفوس المريضة ، وهنا نعود إلى القول بأنها تعيش فى نطاق النفوس والبشرية والصدور أو مشكلة خلفيتها كما أشرنا ، وهكذا نجد حتى التفسير الشكلى الحرفى فى النهاية ، يقترب بمجازه من التفسير الذى يرتبط بالجوهر المقصود ، والمعنى الهادف ، كغاية من العرض القرآنى ، وهو تبيان سوء النفس وشرورها وإيقاعها ووسوستها ، إن هى حادت ، ولم تلتزم بالطريق السوى (١) .

أما « اللامنظور أو الخفى OCCULTISME » من أسرار الطبيعة والنفس مما لا زال مجهول الأسباب كلياً أو نسبياً ، فمن المسلم به أن المعرفة لم تصل إلى غايتها علمياً « SA FINALITE » بل المعرفة تتطور ، وحتى الأديان قد سلمت بذلك ، ففى القرآن الكريم تطالعنا هذه الآية الصريحة « **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** »(٢).وبالتالى ما زالت هناك ظواهر خفية التعليل يشمل العلم جاهداً وتحاول المعرفة المتطورة ، بإصرار تكشف سببيتها ، وتعليلها ، من الافتراض إلى التجريب ؛ والتطبيق الملموس . الإنسانية فى البداية كما هو معروف مرت من مرحلة جهل الأسباب والتعليلات للظواهر المعقدة ، ولو نسبياً ؛ ملتجئة إلى التبرير التلقائى فى نهج البسطاء ، والقول بالغيبى والسرى والمحير والخفى والباطنى... لكل شىء تعجز معرفة سببيته ويحتاج إلى مجهود وترويض فكرى ، وتجاوزتها بعد ذلك إلى مرحلة أخرى محاولة التكشف والتصفية والنقاء

---

(١) أما علاقة الاسلام بالسحر بصفة عامة ، فسوف نتعرض له فى المبحث الأخير من هذه الدراسة ، ولمن يريد التفصيل عن الشيطنة وما حولها يراجع :

BOIS (Jules), **Le satanisme et la Magie avec une étude : de J. — K. HUYSMANS,** Paris, 1896. et LANCELIN (Charles), **Histoire mythique de shatin.** I, de la légende au dogme, origines de l'idée démoniaque, ses transformations à travers les âges, d'après les textes et la tradition. son état actuel son avenir, II, le ternaire magique de statan, envoûtement, incubat, vampirisme, Paris 1903 en 2 vol.

(٢) الاسراء : ٨٥ .

الفكرى فى الرؤية وتحديد السببية خصوصاً فى بعض المجتمعات القديمة التى تصعدت بحضارتها نحو موكب النقاء ، والارتقاء الفكرى ، وصفاء الرؤية كما هو الحال فى الحضارة الإغريقية القديمة كمثال ، واستمر موكب المعرفة فى التطور ، وهكذا رأينا كثيراً من المعطيات التى كانت فى حكم الألغاز فى عصور ما ، تصبح أموراً محددة الأسباب واضحة التعليل ، فى عصور تالية ، وموكب العلم وقدرته تتصعد بإصرار واتزان ، على مستوى الاستنباط ، والاستقراء والتجريب وتكشف القواعد والقوانين المسيرة للظاهرات ، ولكن رغم هذه المسيرة العلمية الأصيلة مازال هناك الخفى واللامنظور من أسرر الطبيعة والنفس يشكل ما تبقى من اطار علمية اللامنظور والخفى « SCIENTIA OCCLTALI » وما أوسعه من إطار هو بمثابة الحافز الذى يدفع الإنسان إلى مزيدمن الخلق ، والمواجهة ، ويبث فيه روح الاختراع والاكتشاف للمجهول ، والتقدم على مستوى السببية والتعليل ، ولقد اتخذت هذه المسيرة لها كشعار الاستيعاب المنهجى ، والإحاطة الأصيلة ، من الأعم إلى الأخص من الأبسط إلى الأعقد ، مشرحة للظاهرات ، ومتدرجة فى فهمها حتى الأعماق . هذا وقد استعمل البعض فى إطار تكسب المهنة واكتساب معارفها ، تعبير « عارف بسر المهنة » لمن وصلوا فى الاستيعاب والإحاطة بمهنتهم درجة تصعب على غيرهم الوصول إليها ، ولم يكتفوا بمجرد المزاولة بل الوصول إلى الأعماق ، وبالتالى التكشف على ما يعتبره العاجز عن الوصول أسراراً وألغازاً . وفى هذا المضمار عزى البعض ، ما جاء فى تركيب بعض الوصفات أو « الوصف FORMULES » على أنه من أسرار المهنة فى التركيب ، والتعرف على الخفى والمبطن ، من المعرفة ؛ سواء فى شكل وصورية التركيب ، أو فى جوهره ، ولم ينعزل اللامنظور والخفى من معطيات النفس الإنسانية عن بقية معطيات الظواهر الأخرى ، فى تكشف أسرارها ومضمرها ولو نسبياً . منذ القدم مع أوصاف « الفيداز VEDAS » ووصفها ، والإنسان يحاول الوصول إلى تكشف الخفى والمبطن فى أغوار النفس وبطونها ، عواطفها ومشاعرها ولو باللجوء إلى التخمين أو التغميض إذ نجد فى الفيداز « وصفاً وتركيباً FORMULE » للتأثير فى العواطف

وسيرها ، تقول الوصفة لمن أراد أن يؤثر على عاطفة ، فتستجيب له مشاعر الحب عليه بأخذ أثر من الإنسان المرجو استعطافه ومحبته أو إخضاعه عاطفياً (لتكن قطرات من دمه ، أو سائلا من لعابه ، أو قطعة من ظفره أو أى أثر آخر ولو قطعة من ملابسه الملصقة بجسده) على أن يؤخذ نفس الأثر من الطرف الآخر . الأثران يطويان بعد ذلك فى شريط أحمر وعلى الشريط يكتب اسمى المراد تعاطفهما ، على أن يكتب ذلك بدم أحدهما . ثم يطوى الشريط بدوره شريطة أن يتلامس الاسمان حين الطوى ، ثم يحمل الشخص المستعطف أو المحب هذا الشريط الطلسمى ، تحت إبطه بعد أن يضعه فى داخل جسد عصفور ميت نشف أو جفف ، وبعد أيام يلقى بكل ذلك فى النار ، وبينما تتم عملية الاحتراق يجرى المحب أو المستعطف مسرعاً إلى الشخص المستعطف النافر فسوف يجده متجاوباً معه ، وخاضعاً له فى النهاية (١) . . . إن كانت هذه الوصفة ترتبط فى مظهرها « بسر المهنة » فى التركيب والصياغة ، إلا أنها فى جوهرها عارية عن كل تعليل فعلى وسببية ملموسة ، خصوصاً على مستوى معرفة عصرنا وقدراته العلمية ، وأصالته فى الإحاطة والاستقراء ، فهل سر المهنة هنا ، أو الفاعلية المقترحة زعماً ، جاءت نتيجة للهالة التى أحاطت آنذاك بمراحل تنفيذها وما يسايرها من انفعالات متبادلة متصلة : دم ، شريط ، عصفور ، نار ، رموز ، إشارات ، إيماءات ، علاقات جرى ، مواقف . . . الخ ؟ أم جاءت كمترتب على دور الوصاف وإيماءاته التنفيذية وما يستقر فى النفوس المتوهمة من قدرة ، هى فى الواقع تخيلية لا أكثر ولا أقل ، ولكن مع هذا

---

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه الوصفة والوصفات الأخرى الواردة فى القيداز وغيرها راجع :

CHOCHOD (Louis), **Histoire de la Magie et de ses dogmes**, Paris, 1949 VILLENEUVE (A) **Amour et Magie** Paris, Durville et les **Envoûtements de haine et d'amour** du même auteur ... etc.

مؤثرة بفضل توهم تغميضى للاقتناع بهما (١) كذلك وفى إطار اللامنظور والخفى من قدرات التحكم فى الظاهرات وسيرها ، أثير موضوع العلاقة بين « اللامنظور والخفى » وبين « العرافة LA DIVINATION »ومدى التمايز بينهما ، بمعنى العرافة ، أما أن تعتمد على استعداد طبيعى وفراسة نظرية ، وتأتى نتيجة لهما (ولقدحمل لنا التراث العربى الكثير عن الفارسية وما حولها من التعرف الفطرى على أبعاد بعض الظاهرات) أو تعتمد على الاكتساب والمهارة التدريبية وترويض القدرات لا فطريتها ورؤيتها التلقائية. ويلاحظ أن الإسلام قد وقف من قدرةالعراف أى كان مصدرها، موقف الداحض لها (٢) ولا تكمل جولتنا فى ما حول السحر من ظاهرات شبيهة تدخل فى محيط عرضنا لهذه المواجهة التحديدية للسحر من خلال ما يمكن أن يلتبس بمدلوله ومنطوقه دون التعرض لظاهرة جديرة بالإشارة، ونعنى بها ظاهرة « التنويم » .

« التنويم HYPNOTISME »الاصطناعى تميزاً له عن «النوم الطبيعى»(٣)، هذا التنويم عرفه الإنسان منذ القدم ، مارسه كهنة مصر الفرعونية

---

(١) بمعنى قدرة تغميضية ، أو الزعم بقدرة غامضة لبعض الوصفات والتركيبات «Une sorte de Pouvoir Mystique des formules»

وقد توسع فى عرض ذلك كل من :

CHOCHOD (Louis), **Occultisme et Magie,** Paris, Payot, 1945 et DANZEL (Th. W.) **Magie et Science Sectrètes,** Paris, Payot, 1947.

(٢) كما جاء فى الحديث المعروف « أتى عرافا يصدقه فقد كذب بما انزل على محمد » .

(٣) وليس أيضا « التنويم المغناطيسى » كما التبس لدى البعض فى البداية ، اذ « المغناطيسية MAGNETISME » ـ دون تعرض لتفصيلات تدخل فى اختصاصات علمية أخرى ، وتتجاوز بالتالى اطار عرضنا هذا ـ هى اما مغناطيسية الأرض بمعنى حقل الجاذبية TERRMAGNETISME أو مغناطيسية الحديد ، والنيكل والكوبالت وقوة جاذبيتهم FERRMAGNETISME أو مغناطيسية الأكسجين ، والبلاتين والصوديوم وهى اقل جاذبية PARRMAGNETISME ، أو مغناطيسية الجاذبية الخاصة بالاجساد ولها قوة معاكسة للسالفة DIAMAGNETISME .. الخ . ويعود الفضل الى التخلى عن فقد التنويم بالمغناطيسية الملتبس ، الى الجراح البريطانى « جيمس بريد » الذى أشرنا اليه أعلاه فى عرضنا .

فى علاج بعض الأمراض ، كما مارسه كهنة الإغريق ، وكانوا يؤثرون بفضله على أتباعهم فى معابد : أبولون ، وسرس ، واندور . ولقد أطلق على هذه المعابد « معابد النوم » ، وعرفه الهنود الأقدمون أيضاً ، ولقد انتشر عابراً التاريخ الوسيط وعصر النهضة ، ولكنه كان مغلفاً فى كثير من الأحيان بالأساطير مطعماً بالكهانة ، بل وفى بعض الحالات بالدجل . ويعود الفضل من بين من يعود إليهم الفضل فى تنقية إطاره ومحاولة الاتجاه به إلى العلمية إلى العالم النمساوى « مسمبر MESMER » فى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم تطورت هذه الاجتهادات وهذه المحاولات فى الميدان الطبى والعصبى ، والنفسى على يد أمثال : الجراح البريطانى « جيس بريد » الذى أكد منذ بداية النصف الأخير من القرن الماضى أن التنويم يمكن الاعتماد عليه طبياً والانتفاع به فى المعالجة . وقد دعم هذا الاعتماد موكب تنقيته من الخرافات ، وحتى على التخلى عن نعته بالمغناطيسية والتباسه بها . ومن جانبه الطبيب الفرنسى « ليبولت » أو بصحة وفاعلية التنويم أمام المؤتمر العالمى للتنويم المنعقد فى باريس ١٩٠٠ ، واجتهد أيضاً فى هذا الإطار البناء كل من « شاركوت » و « برنهايم » . والقانون الإنجليزى من ناحيته ، أعطى له تعريفاً على أنه نوع من الإغفاء من خلال نوم اصطناعى يحدث لدى شخص على استعداد للإيحاء والتوجيه المتزايد ، « والجمعية الطبية البريطانية » بدورها ، بعد اجتهادات متكررة اعترفت منذ سنة ١٩٥٢ بإمكانية استخدامه دون مضاعفات كبديل للتخدير فى العمليات البسيطة وفى جراحة الأسنان وتحاشى آلام الولادة . كما اعترفت أيضاً بقيمته العلاجية فى الاضطرابات النفسية ، وإزالة أعراضها . . . وعليه ، وعلى ضوء ماتقدم ، يمكننا أن نستخلص أن التنويم هو نوم اصطناعى يحدث بواسطة الإيحاء والسأم ، وذلك نتيجة لتكرار منبه معين ، والتركيز عليه ، وإعادة محددة مستمرة ، لا بواسطة مواد مخدرة ، أو مغناطيسية ، وهو بالتالى نوم جزئى يشبه النوم الطبيعى فى مظاهره ، وإن كان ، كما ذكرنا ، يتميز عنه فى نسبه ومصدره ، وأهم حالات التنويم ومراحله : الحالة الاستهوائية ، حالة

التشنج والصمول ، حالة السرمنة والمكاشفة ، حالة الذهول واللاشعور(١).

ولقد استعمل في التحليل النفسى للكشف أثناءه عن الاضطرابات النفسية والدوافع الغائرة ومصدر عقدها ، ومن المستعملين نذكر على سبيل المثال لا الحصر « هادفيلد » . أثناءالحرب العالمية الأولى ، وكذا«ماكسويل» و « هلمونت » « وبرنمان» ، و « فيشر » وغيرهم الكثير . إلا أنه يلاحظ أن « سيجموند فرويد » لم يتحمس له كثيراً فى التحليل النفسى كما هو معروف (٢) .

بقى علينا إذن أن نحدد نقطة جديرة بالعرض فى إطار التصدى للسحر وما حوله،ماله وما عليه ، ونعنى بذلك علاقة السحر بالدين والتباسه به ، وبمعطياته منذ القدم ، وهو موضوع المبحث التالى باختصار .

***

---

(١) Suggestif Stat, Cataleptic Stat, Somnambulic Stat, Lethargic Stat.

(٢) لمن يريد التفصيل عن هذا الموضوع ، أو يستقى من دراسات فرويد يراجع :

FREUD (S.), **Ueber Psycho-analysc**, 1910, und, **Vorlesungenzur Einjührungin die Psycho-analyse.**

وكذا ما ترجم له بالعربية مثـل : **مقدمة فى التحليل النفسى** (ترجمـة د · اسحق رمزى) **والموجز فى التحليل النفسى** (ترجمة د · سامى محمود على ، وعبد السلام القفاشى) القاهرة · دار المعارف · ١٩٧٠ ·

المبحث الرابع

مدى علاقة السحر بالدين

سنتعرض لمدى علاقة السحر بالدين فى حيز محدود ، وفى شكل مركز ، دون خوض فى تفصيلات قد تجد مكاناً لها فى إطار دراسة أنتربولوجية متكاملة عن ظاهر السحر فى المجتمعات البدائية . إذ من المسلم به أن موضوع السحر قد أشبع بحثاً فى أبعاده المتعددة من الناحية الأنتربولوجية . تعرض له من بين من تعرضوا له من الأنتربولوجيين على سبيل المثال « فريزر » ، ومن الديركاميين من « ديركايم » نفسه إلى « مارسيل موسى » و « هوبرت » و « ليفربرول » و « هوفلان » ، وعالجه أيضاً « أليه » كما درسه « كودرنجتون » فى إطار « المانا » ، وكذا « ليمان » و « مالينوسكى » ، والقائمة طويلة لو توخينا الحصر .. والذى يعنينا كما أشرنا سلفاً أن نستخلص من مواجهة هذه الاجتهادات العلمية خطوطاً رئيسية ، وتخريجاً مركزاً ، نرى من خلاله مدى علاقة السحر بالدين .

« فريزر » الذى يرى فى السحر تطبيقاً وهمياً يعتمد على ترابط المعانى عن طريق المشابهة والتناسق والاتصال ، ويعتمد لدى السحرة البدائيين على توخى تتابع الأحداث الطبيعية بالضرورة : دون تدخل عوامل روحية أو مادية ، ولا يتحكم فيه الانفعال ولا العاطفة ، وأن مزاولته رغم بساطتها تعتمد على تفوق لدى الساحر ، يميل إلى القول (نعنى فريزر) بأن السحر سابق للدين ، وقوى العلاقة به ، بل ذهب إلى حد القول أيضاً أن الدين خرج من السحر (كما خرج منه العلم والفن) بمعنى أخطاء الساحر ، وعدم تجاوب الطبيعة معه دائماً ، يمهد للتسليم بوجود

قوة أخرى متجاوزة وعالية تغطى هذاالقصور ،ومن ثم كانت الأديان التى هى ، إذن ، مرحلة تالية للسحر انطبعت بالتعقد فى الطقوس والمزاولة واتجهت لإبراز أصالتها إلى التنافر مظهرياً مع السحر ، وفسر « فريزر » على ضوء ذلك العداء المستحكم بين الكاهن والساحر(١) .

بينما يرى « أليه » العكس : مع التجاوز فى التفصيلات ، فعنده السحر لاحق للدين لاسابق له . نشأ عنه (أى عن الدين) بعد أن أفسد بعض عناصره (٢) ، أما الديركامية ، فبعد انطباعات ديركايم نفسه من خلال الأشكال المبدئية للحياة الدينية وربطها بالأنسقة الطوطمية ، وميله لرؤية السحر كرد فعل للطابع الجماعى الذى كان يسيطر على نشأة الظاهرات الاجتماعية فى المجتمعات البدائية(٣) اتجهت الديركايمية مع « ليفربرول » إلى القول بصعوبة العزل بين الدين والسحر ، حيث إنهما ينتميان إلى جوهر واحد غطى « فترة ما قبل الدينية »فى معطيات العقلية البدائية الانفعالية ، وعلى عكس « فريزر » يعطى « ليفربرول » للانفعالية بما فيها من عاطفة ، وانتشاء ، قدرة أساسية فى السحر وتفاعل الساحر من خلال طقوس معقدة ، وليست بسيطة (كما رآها فريزر) بمافيها من مراحل ذهولية ، وانجذابية ، وغموض مكانى ، واختيار زمانى . ويتحفظ أيضاً على « فريزر » فى تكيفه للبدائى من خلال معطيات ، ومقولات خاصةبالعقلية المتحضرة ، كاستخلاص السببية والربطوالمشابهة والتناسق والاتصال بين المعانى ، واستبعاده للانفعالية التى تشكل القدرة

---

(١) راجع من بين مؤلفات « فريزر » الكثيرة :
FRAZER (J.G.), **The Magic Origins of Royalty,** 1905 et trad. en Franç. **Les Origines Magique de la Royauté,** Paris, 1910 and, **Myths of the Origin of Fire. 1930.**

(٢) لمن يريد التفصيل عن رأى « أليه » يراجع :
ALLIER (R.). **Magie et religion,** Paris, 1935.

(٣) من بين الدراسات الواسعة لديركايم راجع على سبيل المثال فى هذا الموضوع :
DURKHEIM (E.). **Les formes élémentaires de la vie religieuse,** 1912 et réd. plus. fois. éd. Recent. 1960.

الأساسية لعقلية البدائى (١). ومن الديركايميين أو من اجتهد تحت شعارها، من اهتم مثل « هوفلان » أساساً بتحديد علاقات السحر من خلال التشريع وأثره(٢) . ومنهم من وسع اهتمامه « كمارسيل موسى وهوبرت » متعاونين بدارسة السحر فى كل أبعاده فى المجتمعات البدائية من خلال نظرية عامة ، فى محاولة لتحديد أصوله ، ووصف شعائره وطقوسه ، متجه به إلى التمييز بينه وبين الدين فى البداية ومع شىء من التردد . « فوسى وهوبرت » يريان أن الظاهرات الدينية لها قداسة والتزام جماعى مشترك، بينما السحر على العكس من ذلك . غير أنهما فى النهاية اتجها إلى ربط السحر والدين بأصل واحد وهو « المانا » فالمانا لها جانب مقدس يمثل أصل الدين ، وجانب غير مقدس يمثل أصل السحر .

ومهما كانت اجتهاداتهما فهما ملتزمان فى النهاية بتخريج ديركايمى مقنع للسحر من خلال الوجدان الجمعى والفعل الجماعى(٣) . ولعل « كودرنجتون » بدراسته لشعوب ميلانيزيا البدائية ، يعتبر فى صدارة من ربطوا السحر بظاهرة « المانا » ومحاولة تحديدها عند هذه الشعوب على أنها قوة خفية كامنة فى الأشياء وبالتالى ليست قوة « علوية » كما هو الحال فى الدين ، ولكن لاتكمن فى شىء بذاته ، بل هى « قوة سحرية MAGICAL POWER » خارقة للطبيعة تمكن لمن يكتشف سرها

---

(١) لمن يريد التوسع بالنسبة لنظـــريات « ليفى برول » يراجع من بين مؤلفاته فى هذا الموضوع :

LEVY-BRUHL (L.), **Le surnaturel et la nature dans la mentalité primitive,** 1931, **La Mythologie primitive,** 1935, et **L'Experience mystique et les symboles chez les Primitifs.** 1938.

(٢) يراجع « لهوفلان » دراساته :

HUVELIN (P.), **Les tablettes magiques et le droit rimain,** 1900 et **Magie et Droit Individuel** in **A.S.** ×. 1907.

(٣) للتفاصيل راجع :

MAUSS (M.), **Les Origines des pouvoirs magiques dans les sociétés australiennes, 1904 et Esquisse d'une théorie générale de la Magie** (coll. H. Hubert), in **A.S.,** VII 1904.

من السحرة أن يسيرها فى كل شىء ويوجهها كيفما يشاء وعليه فكل السحرة لابد لهم من معرفةسر « المانا » بطريقة أو بأخرى(١) . وجاءت دراسات « ليمان » لتميز بين ثلاثة أنواع من « المانا السحرية » مع دراسة لمعانيها المختلفة عند الميلانيزيين ، ولكل نوع من هذه الأنواع ثلاثة تأثيرات خفية . منها نوع اختصاص تأثيراته الخفية فى الإنسان فرداً وجماعة تصيبه ، أو تمنحه قوة ، والنوع الثانى اختصاص تأثيراته الخفية من خلال الحيوانات والطيور والأشياء الجامدة ، ولايستطيع الإنسان أن يتحكم فى هذا النوع ليستخدمه فى الشعائر السحرية إلا بعد مشقة . أما النوع الثالث فاختصاصه عالم الإله والأرواح يسخر فى إطاره(٢) وأيدت ملاحظات « مالينوسكى » أيضاً ، من خلال دراساته عن جزر « التروبرياند » ما للسحر من دورهام لدى البدائيين وتنوع الاستفادة به : فى الزراعة ، فى الحب ، فى صناعة السفن ، فى حماية الأطفال من المرض ، والصحة ، والموت ، كذلك رؤساء القبائل يستفيدون منه بدورهم للتغلب على أعدائهم عن طريق السحرة الذين لايمكن تشبيههم بالكهنة فى مزاولة شعائرهم وعقائدهم(٣) .

---

(١) راجع دراسته عن الميلانيزيين لمزيد من التوسع :
Condrington, **The Melanesians.**

وفكرة عنها عند بدوى ، فى مقالته **السحر وعلاقته بالدين** ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد الرابع ..

(٢) لمن يريد التفصيل يراجع دراسة عن المانا :
LEHMANN, **Le Mana**

وتلخيص لها عند بدوى ، **المقالة السابقة** .

LEENHARDT, (M.), **Do Kamo,** 1947.

ولقد قدمه الى العربية طاهر واعزيز فى اطروحته بكلية الآداب بالرباط سنة ١٩٧١ (تحت الطبع) .

(٣) راجع لمزيد من الاحاطة **بدراسة مالينوسكى فى هذا الموضوع :**
MALINOWSKI (B.), **Argonauts of the western pacific. 1922.**

كذلك لاحظ ان « برجسون » فصل أيضا السحر عن الدين فى دراسته :
BERGSON (H.), **Les deux sources de la morale et de la religion.**

راجع بدوى ، المقالة السابقة ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية مجلد ٤

وعليه يبدو من الاتجاهات الرئيسية للدراسات الأنتربولوجية والتى قدمنا نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر ، أنه رغم العلاقة — الموجودة بين الدين والسحر فى مظاهر المجتمعات الأولى البدائية سواء على مستوى أصول الظاهرتين أو ردود فعلها ، غير أن هذه العلاقة لاترتفع إلى درجة التشابه وعدم التميز بينهما ، أو إذابة أحدهما فى الآخر كسابق أو لاحق . ويمكننا أن نميز الدين من السحر بوضوح من خلال مسطحين محددين فى التحليل :

١ — نميز بينهما فى موقفها من الطبيعة .

٢ — نميز بينهما فى جوهر المعتقدات والشعائر وهدفها لدى كل منهما.

الدين أمام الطبيعة فى موقفه يوسط الإله بينما السحر يحذف هذه الوساطة . الدين جوهر معتقداته وشعائره تدور حول علاقة الخالق بالمخلوق ، وتكيف كل أبعادها من خلال ذلك دنيوية وأخروية ، وبالتالى لايمكن تصور دين أبدون إله ، بينما السحر العكس . ولقد اتخذت الأديان نتيجة لهذا التمايز الجوهرى ، مواقف محددة من السحر ، وليس بسبب تنافر مظهرى كما زعم « فريزر » . وإنما لتباعد مؤسس فى الجوهر والوسيلة والهدف . ولعل الإسلام كدين ، موقفه من السحر يعطى نموذجاً يعنينا عملياً ، كمجتمعات تدين بالإسلام نبرزه فى إطار مدى علاقة السحر بالدين .

***

المبحث الخامس

موقف الإسلام من السحر

ولكي نحدد موقف الإسلام كدين ، لا المسلمين كبشر ، من السحر وما حوله ، وبإيجاز ، علينا أن نعتمد أساساً على المصدر الرئيسي للإسلام ونعني به القرآن . القرآن يكذب السحر ولا يصدقه ، ويسفه السحرة ويناقضهم ، ويعطي لهذه الظاهرة ، ظاهرة السحر تحديداً سببياً لجوهرها ، معرياً لها عن كل مزاعمها ، وذلك بما يتمشى والرؤية الموضوعية لمواجهة السحر .

القرآن لم يعط للسحر على مستوى جوهره ، قدرة إعجازية خارقة ، وإنما هو مجرد « تعلم مكتسب وصناعة » تقول الآية : «**إنه لكبيركم الذى علمكم السحر**» (١) ، وفى آية أخرى : « **وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم**» .(٢) كما نجد آية تصف السحر بكل وضوح أنه صناعة كيدية غير مفلحة « **إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى** » (٣) . وفى مجال تفنيد فاعليته المزعومة يطالعنا القرآن بتفسير سببي موضوعي ، يشرح من خلاله طبيعة السحر ، وكيف يحدث عملياً ، قول الآية « **قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى** »(٤) إلى قوله « **قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا ، فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى .** »(٥) . لم يسلم القرآن

---

(١) طـــه : ٧١ .
(٢) يونس : ٧٩ .
(٣) طـه : ٦٩ .
(٤) طـه : ٦٢ .
(٥) طـه : ٦٥ ـ ٦٦ ، والآية الأخيرة وهى التى تعنينا فى الاستشهاد رقمها ٦٦ .

بقدرة السحر وبخوارقه ، وإنما عزا الزعم بهذه القدرة إلى مجرد التخيل. لم يقل القرآن (فإذا حبالهم وعصيهم تسعى وتتحرك) . فهى لم تسع ولم تتحرك مطلقاً. فهى عصى وحبال كما هى ، جامدة وسحيها وحركتها مجرد تخيل لا أكثر ولا أقل . وهكذا أعطى لنا القرآن تفسيراً سببياً موضوعياً لظاهرة السحر . كذلك نفى القرآن عن السحر أى إيجابية اجتماعية ، فهو عمل فاسد يبطل ولا يعتمد عليه ،تقول الآية القرآنية : « ... **قال موسى ما جئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لايصلح عمل المفسدين**»(١). وغنى عن التعريف موقف محمد صلى الله عليه وسلم رسول الإسلام ، من السحر وتنفنيده له ، بل حتى لما حوله من ظاهرات شبيهة كالعرافة مثلا ، كما جاء فى الحديث المشهور والذى أشرنا إليه سابقاً . فى هذا العرض ، من قوله « من أتى عرافاً يصدقه ، فقد كذب بما أنزل على محمد » ، وهكذا حينما ندقق النظر فى جوهر رؤية القرآن ، ولا نقرأه قراءة سطحية روتينية ؛ لاتبرز لنا قدرة المعانى وأصالتها ؛ نجد أن القرآن يلتقى مع معطيات الاتجاهات العلمية المفسرة للسحر ؛ على أنه ظاهرة كبقية الظاهرات تدرس ، وتشرح وتحدد سببيتها . كما يبدو لنا من الخلاصة التى سنعطيها الآن لعرضنا هذا .

الخلاصة : يمكننا أن نقول ، السحر ظاهرة معاشية ، تعتمد أساساً فى تبرير معطياتها على « تعرية المسحور من الإرادة EXTERIORISATION DE LA VOLONTE وذلك بفضل وسائل وطقوس ، ووصف معينة مهمتها المساعدة فى خلق إطار التعرية وظروف التعويم للإرادة ، بعد شل قدراتها التركيزية الطبيعية ، والاتجاه بها إلى رؤية مهتزة تتبلور فى محيط من التخيل وآفاقه ، بعد فقدان الشعور الضابط للإرادة لدوره ، فيعطى له إجازة ، وتعطل طاقته العازلة الشعورية ، فتسير الأمور المرئية ، والملموسة والمحسوسة ، والمسموعة فى غيبة الإدراك الواعى وبرخصة منه ،

---

(١) يونس : ٨١ .

فى إطار إدراك متخيل . تتحكم فيه الظروف التى خلقها الساحر وأصداؤها، فتصبح واقعاً ، وعليه فدراسة السحر كظاهرة ، لابد وأن يتعرض لها من مختلف الزوايا والجوانب على ضوء بيئتها الاجتماعية والنفسية ، وتعدد عواملها المشكلة لسببيتها ، والمهيئة لها ، والمساعدة والمساهمة على انتشارها من خلال نظرة شمولية تهتم بجوهر الظاهرة ، بقدر اهتمامها بمتناقضات الواقع الاجتماعى الذى تعيش فيه . بقى سؤال بسيط قد يسأله سائل وهو — وبعد هذا كله ، ومع كل هذا — هل للساحر والسحر قدرة حقة، وفاعلية ملموسة ؟ نقول للإجابة على هذا السؤال، يفتش عن هذه القدرة المتخيلة، وهذه الفاعلية المفترضة المتوهمة ، ويبحث عنها لا على مستوى الساحر بقدر ما يبحث عنها ويفتش ، عند الذى عريت إرادته وسلبت، واهتزت معطيات إدراكه ، فغابت قدرة تعقله فى ضباب التخيل وسحبه ، فجعل منها ، متوهماً ، حقائق له ، ونعنى به ، وبكل بساطة : المسحور .

***